قضية الانتحال في الشعر الجاهلي

الانتحال: أي ادعاء الشاعر لنفسه شعرا وهو غير له ونحل هذا الشعر فلانا: أي ألصقه به وهو غير صاحبه .

أما النحل هو : أن ينسب شاعر أو راو ما شعرا مزيفا إلى شاعر آخر قديم ، وقد درس القدماء أمثال محمد بن سلام الجمحي قضية الانتحال في الشعر الجاهلي، وذكروا بعضا من مشاهير الرواة المنتحلين مثل خلف الأحمر وحماد الراوية وغيرهم .

الشعر الموضوع او المصنوع : ان ينسب شعر عصر ما الى عصر سابق له ، كأن ينسب الشعر الاسلامي الى العصر الجاهلي .

الانتحال عموماً هو ظاهرة أدبية عامة لا تقتصر على أمة دون غيرها من الأمم ولا على جيل معينٍ من الأجيال، هذا وقد عرفها العرب كما عرفتها الأمم القديمة التي كان لها ناتج أدبي وعرفها العصر الجاهلي كما عرفها العصران الأموي والعباسي.

يُعدّ **ابن سلام الجمحي** أوّل من أثار في إسهاب مشكلة الانتحال في الشعر الجاهلي في كتابه : "طبقات فحول الشعراء"، وقد ردّها إلى عاملين : عامل القبائل التي كانت تتزيّد في شعرها لتتزيد في مناقبها، وعامل الرواة الوضاعين.

يقول ابن سلام: "لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلّ بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلّت وقائعهم وأشعارهم وأرادوا أنْ يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواة بعدُ فزادوا في الأشعار".

وقد لفتت هذه القضية ، قضيّة انتحال الشعر الجاهلي أنظار الباحثين المحدثين من العرب والمستشرقين ، وبدأ النظر فيها من المستشرقين **نولدكه** سنة ١٨٦٤م ، حيث نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين : امرئ القيس والنابغة وزهير وطرفة وعلقمة وعنترة ، فتشكك في صحّة الشعر الجاهلي عامة ، منتهياً إلى أنّ عدداً قليلاً من قصائد هؤلاء الشعراء يمكن التسليم بصحته ، مع ملاحظة أنّ شكّاً لا يزال يلازم هذه القصائد الصحيحة في ترتيب أبياتها وألفاظ كلّ منها .

وكان **مرجليوث** اكبر من أثار هذه القضية في كتاباته حيث ذهب الي رفض الشعر الجاهلي جملة في مقالة بعنوان (اصول الشعر العربي) نشرها في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد يوليو سنة ١٩٢٥م، وقد بني رأيه هذا علي ضربين من الأدلة: أدلة خارجية وأدلة داخلية،

الأدلة الخارجية :

١ استهل مرجليوث مقالته بالحديث عن وجود الشعر في الجاهلية وموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وآراء القدماء في ذلك.

٢ ثم ينتقل الي الحديث عن حفظ هذا الشعر الجاهلي وينفي ان تكون الرواية الشفوية هي التي حفظته ليقول انه لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوي الكتابة، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ليؤكد انه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم.

٣ ثم يتطرق بعد ذلك الي الحديث عن الرواة من علماء القرنين الثاني والثالث الهجريين، فيذكر حمّاداً، وجناداً، وخلفاً الأحمر، وأبا عمرو بن العلاء، والاصمعي وابا عمرو الشيباني وأبا اسحاق والمبرد، ثم اضاف الي ذلك آراء هؤلاء الرواة العلماء بعضهم في بعض فقال: ان هؤلاء العلماء لم يكن يوثق بعضهم بعضاً، وقال ذلك ليزعم ان الوضع في هذا الشعر كان مستمراً.

الأدلة الداخلية :

١ يقول مرجليوث: ان ما في هذا الشعر الجاهلي لا يمثل الجاهليين الوثنيين ولا من تنصروا منهم، فأصحابه مسلمون لا يعرفون التثليث المسيحي ولا الآله المتعددة، انما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما فيه من كلمات دينية اسلامية مثل الحياة الدنيا، ويوم القيامة، والحساب، وبعض صفات الله .

٢ وينتقل من ذلك الي اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة وهي نفس لغة القرآن الكريم التي اشاعها في العرب، ويقول: ولو ان هذا الشعر كان صحيحاً لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية، كما مثل لنا الاختلافات بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب.

٣ ثم ينتقل الي موضوعات القصائد، ولعله يريد ان يستنتج منه ان اتفاق القصائد الجاهلية في التطرق لموضوعات واحدة بعينها تتكرر في كل قصيدة، أمر يدل علي أنها نظمت بعد نزول القرآن لا قبله.

بواعث الانتحال عند لايل :

إن من وضعوا الشعر الاسلامي كانوا قد حاكوا نماذج قديمة وتقاليد ادبية موروثة ، وتدل هذه المحاكاة على وجود اصل يحاكونه فلا بد أن يكون هناك شعر جاهلي عرفه الاسلاميون وحاكوه .

فضلا عن ذلك أن في الشعر الجاهلي صورا من الاساليب والتراكيب الملتوية تخرج عن الصورة النحوية الطبيعية مما يدل على قدمها ، كذلك فيه صورة لتهتك خلقي لا توجد الا في نفس وثني كما في معلقة امرئ القيس .

اما مزاعم الانتحال عند بلاشير :

إن الاصول الصحيحة للشعر الجاهلي اختلطت بالنماذج والقصائد الموضوعة اختلاطا يتعذر معه أن تميز ، فقد عدلوا رواة البصرة ونحاتها في هذه الاصول بما يتماشى مع القواعد النحوية

البصرية من جهة ، والقواعد الجمالية الاسلوبية من جهة اخرى ، ويتخذ دليله على ذلك خلو القصائد من ظواهر اللهجات القبلية .

اما بواعث وضع الشعر عند **مصطفي صادق الرافعي** كما يلي:

١ تكثر القبائل لتعتاض مما فقدته بعد ان راجعت الرواية وخاصة القبائل التي قلت وقائعها واشعارها وكانت أولاها قبيلة قريش.

٢ شعر الشواهد في تفسير الغريب ومسائل النحو خاصة عند الكوفيين.

٣ الشواهد التي كان بعض المعتزلة والمتكلمين يولدونها للاستشهاد بها علي مذاهبهم.

٤ الشواهد على الأخبار، لانه لما كثر القصاصون وأهل الاخبار، اضطروا ان ينحلوا الشعر لما يلفقونه من الأساطير.

٥ الاتساع في الرواية، كان الرواة يتسعون في رواياتهم بسبب السباق بينهم فكانوا يضعون على فحول الشعراء قصائد لم يقولوها، ويزيدون في قصائدهم.

اما **طه حسين** فدرس القضيّة دراسة مستفيضة في كتابه : "الشعر الجاهلي" الذي أحدث به رجّة عنيفة أثارت كثيرين من المحافظين والباحثين فتصدوا للردّ عليه. ولم يلبث أنْ ألّف مصنفه: "في الأدب الجاهلي" الذي نشره في سنة ١٩٢٧م ، وفيه بسط القول في القضية بسطاً أكثر سعة وتفصيلاً .

وقد بحثه الي ثلاثة اقسام: الدوافع والأسباب التي تدفع الباحث الي الشك في الشعر الجاهلي، وأسباب الوضع والانتحال في الشعر الجاهلي، ثم درس فريقاً من الشعراء وشك في نسبة الشعر اليهم.

الاسباب التي تحمل على الشك في الشعر الجاهلي :

١ الحياة الدينية: فرأي ان هذا الشعر الذي يضاف الي الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة او كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسلطة علي النفس والمسيطرة علي الحياة العملية، واما القرآن فيمثل لنا حياة دينية قوية تدعو اهلها الي ان يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال.

٢ الحياة العقلية: الشعر الجاهلي يمثل العرب الجاهليين بالجهل والغباوة والغلظة والخشونة بينما يمثلهم القرآن اصحاب علم وذكاء واصحاب عواطف رقيقة وعيش فيه لين ونعمة.

٣ الحياة السياسية: ويقول ان حياتهم السياسية لا تتضح في شعرهم الجاهلي مع انهم كانوا علي اتصال بمن حولهم من الأمم مما يوضحه القرآن الكريم في سورة الروم، اذ يعرض علينا العرب شيعتين، شيعة تنتصر للروم وشيعة تنتصر للفرس.

٤ الحياة الاقتصادية: يقول: ان الشعر الجاهلي لا يتحدث عن حياتهم الاقتصادية بينما يمثِّل لنا القرآن الكريم العرب طائفتين: طائفة الاغنياء المستأثرين بالثروة، وطائفة الفقراء المعدمين. وكل ما في الشعر الجاهلي هو ان العرب اجواد كرام ولكن القرآن يلحّ في ذم البخل والبخلاء.

٥ الحياة الاجتماعية: ان الشعر الجاهلي لا يعني الا بحياة الصحراء والبادية وهو لا يعني بها الا من نواح لا تمثلها تمثيلاً تاماً، فاذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مساً رقيقاً ولا يتغلغل في اعماقها وما هكذا نعرف شعر الاسلام ويقول: انا لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر او الاشارة اليه.

٦ لغة الشعر واللهجات: ولاحظ ان الشعر الجاهلي لا يصور اللغتين الشائعتين في الجزيرة: لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية، بل هو يضيف الي الجنوبيين اشعاراً بلغة الشماليين. ثم وقف عند لهجات الشماليين التي تمثلها قراءات القرآن الكريم ولاحظ ان الشعر الجاهلي لا يمثلها.

الرد علي أدلة طه حسين :

١ قياس الشعر الجاهلي في ابراز الحياة الدينية للجاهليين علي القرآن الكريم مردود، لان القرآن كتاب ديني يريد ان يجمع العرب علي الاسلام، فطبيعي ان يعرض لدياناتهم ويناقشها بخلاف الشعر، ولكن مع ذلك فان في كتاب (الاصنام) لابن الكلبي ذخيرة كبيرة من الشعر تصور حياتهم الوثنية علي خلاف ما يزعمه طه حسين.

٢ ان جمهور العرب كانوا بدوا ولم يتحولوا الي طور فكري ينتظره طه حسين. وفي الحقيقة نري حياتهم العقلية الفطرية في شعرهم.

٣ شعر الصعاليك طافح بما يصور النضال بين الاغنياء والفقراء، وايضاً فان شعراءهم اذا كانوا قد اكثروا في مدحهم وفخرهم ذكر الكرم، فانهم اكثروا في هجائهم من ذكر البخل وشح النفس.

٤ أن لغة القرآن الفصحي كانت سائدة في الجاهلية قبل الاسلام، وان الشعراء منذ فاتحة هذا العصر كانوا ينظمون بها وأنها كانت لغة قريش السائدة.

٥ وعلي فرض ان الشعر الذي وصلنا موضوع، فان الوضّاع كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلدوها وحاكوها، ونفس هذه المحاكاة تدل علي وجود اصل يحاكونه.

أسباب الانتحال عند طه حسين :

وتحدث طه حسين عن أسباب الانتحال وارجعها الي ما يلي:

١ السياسة: ويريد بها العصبية القبلية مثل ما كان بين قريش والانصار من عداء وما كان بين القبائل من احقاد قديمة، ومع ذلك لم يستشهد بشعر جاهلي بل استشهد بشعر اسلامي قيل بعد الاسلام. وهذا ما اشار اليه ابن سلام كما قلنا سابقاً.

٢ الدين: وتطرّق الي الشعر الذي قيل قبل البعثة تبشيراً بالنبي صلي الله عليه و آله وسلم او ما جاء عند المفسرين من ذكر الأمم السابقة، وتشكك فيما اضيف الي شعراء اليهود والنصاري من اشعار وكذلك ما اضيف الي عدي بن زيد العبادي، وهذا ايضاً ما رفضه ابن سلام ولم يكن القدماء في غفلة عنها.

٣ القصص: وتحدث عن القصص وما كانوا يضعون من الشعر لتزيين القصص والأخبار. وقد نبّه ابن سلام علي ذلك عند ابن اسحاق واضرابه.

٤ الشعوبية: وتحدث عن الخصومة بين العرب والموالي، وان هؤلاء الشعوبيين قد نحلوا اخباراً واشعاراً واضافوها الي الجاهليين والاسلاميين وكذلك فعل خصومهم، يقول في ذلك: (وكانت الشعوبية تنحل من الشعر ما فيه عيب للعرب وغض منهم وكان خصوم الشعوبية ينحلون من الشعر ما فيه ذود عن العرب ورفع لأقدارهم).

٥ الرواة: وتحدث عن فساد مروءة بعض الرواة مثل حماد وخلف الأحمر وأبي عمرو الشيباني وانهم كانوا ينحلون الاشعار ويعبثون بالشعر، وتحدث ايضاً عن طائفة اخري اتخذت الرواية مكسباً وهم الاعراب الذين كان يذهب اليهم رواة الأمصار يسألونهم عن الشعر والغريب. وقد قلنا سابقاً ان القدماء كانوا لهؤلاء الرواة بالمرصاد.

ثم تناول في القسم الثالث من كتابه الشك في شعر مجموعة من شعراء الجاهلية مثل امرئ القيس، وعلقمة الفحل، وعبيد بن الأبرص، وعمرو بن قميئة، والمهلهل، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلزة، وطرفة، والمتلمس، والأعشي، ثم تحدث عن الشعر المضري.